الفصل الرابع عشر

الأشرعة الحمراء

بعد عيد الفصح بفترة قصيرة، في سنة 1190م لميلاد السيد المسيح، اجتمعت عشر سفن حربية تعود إلىٰ ملك الإنكليز عند مرفأ دارتموث وبدأت رحلة الحج نحو الديار المقدَّسة. بعد اجتيازها رأساً اسمه غودستارت Godestart، أي «الانطلاقة الجيّدة»، رسمت خطّة لعبور بحيرة پواتو إلىٰ لشبونة، حيث كانت على موعد للقاء الجزء الأساسي من الأسطول. وكانت السفن الأخرى آتيةً من موانىء موجودة في إنكلترا، وبريتاني، والنورماندي، وپواتو، أي على امتداد مملكة عائلة بلانتاجينيه في الجزر البريطانية وفي القارة. وحالما يجتمع شمل الأسطول الملكي في البرتغال، كانت خطّته أن يعبر مضائق أفريقيا عبوراً مهيباً ويتابع إلىٰ مرسيليا ليلقى قائده المندفع، المعروف باسم **قلب الأسد**، وجيشه.

كانت كلّ من تلك السفن الشراعية، أَو القوادس، تحمل ثلاث دفّات احتياطية، وثلاث عشرة مرساة وثلاثين مجذافاً، وشراعين، وثلاث مجموعات من الحبال، وقبطاناً وطاقماً مؤلّفاً من خمسة عشر فرداً. كما كانت مجهّزةً لتحمل مائة رجل مسلّح تسليحاً جيّداً. أمّا من ناحية التصميم فإنّ تلك السفن الحربية كانت مستطيلةً وضيّقة، ثابتة بما يكفي لتصمد في البحار العالية، ولكنها

مصنوعة للإبحار منخفضةً في المياه. كان لديها صفّان من المجاذيف ومهماز مستدقّ الرأس في المقدّمة، مطليّ برسم مميّز. وكان الهدف من مقدّم السفينة في المعركة أن يعيق سفينة عدوّه.

كان أميرال هذا الأسطول روبير دو سابل الجدير بالاحترام، وكشخص ملتزم بمهمّته المقدَّسة، رافقه رجلا دين هما رئيس أساقفة أوكسيان وأسقف بايون. كان دو سابل ثرياً ومن عائلة عريقة، رجلاً وحيداً توفّي كلّ من زوجته وابنه وتزوّجت بناته زيجات موفّقة ومستقرّة. فكان بذلك خالي البال قادراً على التفرّغ كلّيّاً لمهمّته. إنّه رجل قتال صاحب خبرة وإداري ماهر وعلى صلة قرابة بعيدة بالملك نفسه، ولهذا الأمر أيضاً دلالته. بعد فترة غير طويلة من قيادته أسطول الملك إلىٰ فلسطين، أصبح روبير دو سابل مقدَّماً لفرسان الهيكل.

اندفعت الحامية الأمامية للحملة الصليبية الكبرى في عباب بحر پواتو في رحلة هادئة وادعة. لكن عندما دخل الأسطول الصغير البحر الإسباني في يوم عيد الصعود المقدّس، هبّت عاصفة عاتية وبعثرت السفن على مساحاتٍ شاسعةٍ جدّاً؛ فَخَرَّ رجال الدين راكعين وأخذوا يصلّون من أجل الخلاص، فاستُجيب لصلواتهم وقيل إنّه ظهر عليهم شبح القديس الإنكليزي توماس بيكيت ثلاث مرّات بدل المرّة الواحدة وفي ثلاثة أماكن مختلفة.

تكلّم شبح الشهيد إلىٰ المحاربين المنهكين فقال: «لا تخافوا أنا توماس وقد كلّفني الربّ بحماية أسطول ملك إنكلترا. إذا حمى رجال هذا الأسطول أنفسهم من الرذيلة وتابوا عن خطاياهم الماضية، سيمنّ عليهم الربّ برحلة موفّقة ويقود خطاهم إلىٰ سبيله القويم».

عندها اختفى الشبح وهدأت الرياح وسكن البحر.

يُعتقد أنّ تسعاً من السفن العشر وصلت بعد جهد إلىٰ ميناء لشبونة، أمّا العاشرة فساقتها الريح جنوباً إلىٰ بلدة سيلڤا، وهي قرية كانت قد وقعت قبل سنةٍ واحدة فقط تحت السيطرة المسيحية، ممّا كان يعرّضها لهجمات متكرّرة

من أهل إسبانيا المسلمين، فأمسكت السلطات المحلية بالسفينة الصليبية وجعلت منها متراساً ضدّ «الوثنيين». إذاً أنقذت العناية الإلهية طواقم السفن الباقية بأعجوبة امتنّ لها البحارة جزيل الامتنان، كما رفع من معنوياتهم وصول فرقة من 63 سفينة أخرى إلىٰ لشبونة من عدّة مرافىء أوروبية. وبعد مضي فترة قصيرة ظهرت مجموعة حربية ثانية مؤلفة من 30 سفينة رفعت عديدَ الأسطول الملكي إلىٰ 106 سفن، بينها ستّ للشحن. ولم تكن هذه سوى القوادس ثلاثية الصواري الشهيرة المعروفة باسم جمال البحر، أَو الباصات، التي تملك ثلاثة صفوف من المجاذيف وتحمل شحنة مزدوجة من البضائع والأسلحة وما يفوق الأربعين حصاناً.

وكالمتوقّع كان هؤلاء المرتزقة الآتون من أنحاء ڤيزيلي في هياج دائم وتوّاقين إلىٰ القتال. فهم مطمئنّون إلىٰ حماية الربّ لهم وقد أدّت بهم ثقتهم الزائدة إلىٰ الخروج عن طاعة قادتهم. فاشتعلت الشجارات بين الحجّاج المسيحيين وأهل البرتغال، واستغلّ النهّابون واللصوص الموجودون في الجيش الصليبي هذه المناوشات وساقوا اليهود والمسلمين إلىٰ خارج منازلهم وسلبوا ممتلكاتهم وأحرقوا بيوتهم واغتصبوا عدداً من نسائهم، في تصرّف لا يشبه في شيء السلوك المستقيم الورع الذي فكّر فيه شبح بيكيت عندما دعا العاصفة إلىٰ الهدوء. عندها أُغلقت أبواب لشبونة في وجه النهّابين ورُمي في السجون أكثر من سبعمائة من الأكثر عصياناً بينهم.

قبل أن يبدأ الأسطول رحلته البحرية، كان ملك الإنكليز الكبير قد وضع قواعد لمعاقبة سوء التصرّف في صفوف جنوده. في قصره على نهر اللوار والمعروف باسم شينون، وقبل انطلاقه إلىٰ نقطة استنفار جيشه في ڤيزيلي، كان قد سنّ قواعد تتعلّق بالسلوك العسكري. إذا قتل جندي رجلاً على متن السفينة يتم تقييده إلىٰ ضحيته ويرميان في البحر. وإذا حصل الاعتداء على اليابسة، يُقيّد المجرم إلىٰ ضحيته ويُحرق حيّاً. وإذا أراق جندي الدم بسكّينه، يخسر

يده، وإذا نخس زميلاً له من دون أن يراق دمه، يغطّس في مياه البحر ثلاث مرّات. أمّا إذا شتم جندي زميلاً له، فعليه أن يدفع أونصة من الفضّة عن كلّ عبارة بذيئة. وإذا دين صليبي بتهمة السرقة، يُحلق رأسه «على غرار المساجين» قبل أن يُسكب عليه الزفت المغلي.

لكن قوانين الملك لم تكن مناسبة لحوادث لشبونة على كلّ حال فأُلقي بوسائل العقاب من النافذة. لم يُسكب القار على رأس أحد ولم يُنثر الريش ولم يُغطّس أيّ مجرم في البحر، وذلك لأنّ روبير دو سابل كان يعرف أنّه في حاجة إلىٰ كلّ رجل في كامل عافيته لمحاربة العرب. وإن كان لرجاله أن يموتوا، فهو يفضّل أن يفارقوا الحياة في ساحة الحرب وباسم يسوع المسيح. لذلك تمّ التغاضي عن المخالفات، واستراح ملك البرتغال عندما شاهد آخر سفينة من الأسطول الصليبي تختفي خلف أفق الجنوب.

في مواجهة قمة «كالبي» في جزيرة جبل طارق إلىٰ اليسار وسلسلة جبال الأطلس الأفريقية إلىٰ اليمين، انسلّت السفن عبر مضائق أفريقية واجتازت ساحل إسبانيا الجنوبي. وبعدما أصبحت إسبانيا «الكافرة» وراءهم، عرف الحجّاج أنّه انطلاقاً من هذه النقطة وطوال عبورهم في البحر المتوسط، فإنّ الأراضي التي إلىٰ يسارهم مسيحية والتي إلىٰ يمينهم «كافرة». وعملياً، كان من الأسهل عليهم في مشروعهم أن يقسّموا العالم إلىٰ خير وشر، أبيض وأسود، أوروبيين وكلّ الآخرين.

بالنسبة إلىٰ هذا الوصول إلىٰ مرسيليا في 22 آب/ أغسطس، تتحدَّث السجلاّت فقط عن نجاة الأسطول من «الركامات الرملية الخطرة وتهديد الصخور المخيفة، ومضيق أفريقية العاصف وكلّ مخاطر المحيط» من دون أي إشارة إلىٰ حوادث التخريب. كان رفع شأن مسعى الصليبيين قد بدأ منذ ذلك الوقت. وعند وصولهم، ألقوا بالمعابر إلىٰ البرّ لاستقبال ملكهم، سيّدهم الذي لم يهدأ منذ تتويجه فترك خلفه كلّ ملذّات حياة البلاط والتزم كما لو أنّ الربّ

قد اختاره، في رحلة جديرة بالثناء وعمل يمتاز «بخير كثير، عمل شاق، عمل ضروري».

لكن الملك لم يظهر للعيان. في الواقع، كان ريتشارد الموصوف بضيق الصدر الدائم قد وصل إلىٰ مرسيليا قبل ثلاثة أسابيع وإذ لم يجد أيّ أسطول تابع طريقه نزولاً نحو الساحل الإيطالي في سفينة مصادَرة، ثمّ إلىٰ مسينا في صقلية.

II

إلى صقلية

في مرسيليا في 31 تموز/ يوليو، خاب ظنّ ريتشارد حين لم يجد الأسطول. كانت أمام سفنه ثلاثة أسابيع تمضيها في عرض البحر حيث لا تزال تعبر مضيق أفريقية (لكنّه لم يكن على علم بذلك). ولعدم وجود وسيلة للتيقّن من موعد وصولها، سرعان ما نفد صبر الملك الإنكليزي، لمعرفته أنّه في وضع طبيعي وفي ظروف ممتازة لا يبعد أكثر من خمسة عشر يوماً بحراً عن فلسطين. ويعرف أيضاً أنّ هناك جيشاً ألمانياً، يقارب بالقوّة وبالعدد الجيش البريطاني والفرنسي مجتمعين، عالقاً من دون قائد في مكان ما في شمال وغرب بلاد الشام. مع ذلك، تلبّثَ في المدينة الساحلية مدّة أسبوع، وأمضى وقته يتأمّل عظم فكّي القديس أليعازر، ويسمع أحاديث الرهبان السود في دير القديس ڤيكتور. وربّما لعدم تحمّله المزيد من التأخير، استخدم سفينتي شحن كبيرتين وعشرين قادساً، وحمّل أجناده على متنها واتّجه جنوباً.

كان يبحر متباطئاً، آملاً أن يلحق به أسطوله، وعرج على جنوى ليزور فيليب الذي كان يرقد مريضاً في سريره. في هذيانه، طلب فيليب من ريتشارد السماح له باستعمال خمس سفن لرحلته الماضية قدماً. وبما أنّ ريتشارد لا

يملك أن يقاوم رغبته في إغاظة فيليب، اقترح عليه استعمال ثلاث منها، وكان هذا استخفافاً أزعج فيليب، تماماً كما أراد ريتشارد، فرفض الملك الفرنسي العرض. وفي مكان متقدّم من الساحل، بعد المرور بمعقل تشيثيتا ڤيكيا البابوي البحري، توقّف ريتشارد في أوستيا قرب مصبّ نهر التيبر. وهناك وجد فرصة ثانية لإزعاج حلفائه، عندما لاقاه موفدان بابويان بحرارة وسلّماه دعوة لقصد روما ومقابلة كليمانت الثالث.

بتعالٍ مسرحي أزاح ريتشارد الدعوتين جانباً. ومن مفارقات الأمور أن يزدري الملك الرجل نفسه الذي دعا إلىٰ الحرب الصليبية وكان هو أوّل المستجيبين لندائه. إذ لم يكن العاهل الإنكليزي مختلفاً عن أسلافه من حيث تشنّج علاقاته مع روما بالنسبة إلىٰ الكنيسة والدولة. وبالفعل، من خلال إشارة إلىٰ الخلاف الذي أدّى إلىٰ مقتل توماس بيكيت قبل تسع عشرة سنة، بدأ ريتشارد عهده بالشكوى إلىٰ البابا حول رهبان كنتربري المستقلين، وبعث إليه برسالة شديدة اللهجة تتضمّن تهديداً بالعنف، حيث كتب الملك الجديد آنذاك يقول: «إن لم تقف حكمة الكرسي الرسولي في الثغرة لكسر غطرسة هؤلاء الرهبان، سنحسم الأمر ونضع عليهم أيدينا الملكية الصارمة...». هذا الوعيد لم يقده إلىٰ مكان، وبقيت الخلافات الأخرى حول عدَّة تعيينات من طرف الكنيسة، بما فيها تعيين أخيه غير الشقيق، جيوفري، رئيساً لأساقفة يورك، تثير الاستياء والاضطراب.

بدلاً من التحادث مع الكرادلة، اتّجه الملك إلىٰ الأرياف للاستمتاع بالمناظر الطبيعية. فاصطاد ومرح على ساحل أمالفي، وأمضى في نابولي أسبوعين فترت خلالهما همّته، وأسبوعاً إضافياً في ساليرنو، كان فيه توّاقاً لمعرفة أخبار أسطوله. وهل وصل سالماً إلىٰ مرسيليا؟ هل نُقل عساكره على متن السفينة المتوجّهة إلىٰ مسينا؟ هل حصلت حوادث مؤسفة؟

بعدما تعب من سجن نفسه في السفينة، اجتاز ريتشارد كالابريا راكباً

جواده، جاهلاً ما يجري في أماكن أخرى، متوّقفاً ليلاً للاستراحة في الأديرة الموجودة على طريقه، إلىٰ أن وصل إلىٰ بلدة ميليتو الأسقفية القديمة، وهناك كاد يخسر حياته. حصلت المشكلة عندما كان ريتشارد يجول على واده، يرافقه حارس أوحد، في قرية صغيرة معزولة. فسمع هناك صراخ صقر يعلو من كوخ مزارع قريب. وبما أنّ احتفاظ فلاح متواضع بصقر للصيد كان يُعتبر مخالفة لقوانين الفروسية، ترجّل الملك الضجِر عن مطيته، ودخل المنزل وأمسك بالطائر كما لو أنّه شريف المحلّة. وتجاه هذا الاعتداء الدخيل، اقترب منه حشد غاضب من المزارعين الذين أخذوا يرشقونه بالعصي والحجارة، حتّى أنّ أحد الأشخاص الجسورين سحب سكيناً في وجه أعظم محاربي أوروبا، فجلب المسكين لنفسه سلسلة ضربات من حدّ السيف الملكي، إلىٰ أن انقصف السيف نفسه وأُجبر ريتشارد، الذي بقي ممسكا بأرومة القبضة الذهبية، على الانسحاب انسحاباً لا يليق بملك وراح يرمي الحجارة ردّاً على الفلاحين الغاضبين، قبل أن يلجأ أخيراً إلىٰ دير لابانيارا المحلّي. وتتفادى أكثرية مؤرّخي الحملة الصليبية الثالثة ذكر هذه الرواية المهينة.

وماذا لو مات ريتشارد تلك الميتة الخسيسة؟ لا شكّ في أنّه راودته حينها ذكرى الحادثة المروعة التي تعرّض لها ملك صليبي آخر هو فريدريك بربروسا، إمبراطور ألمانيا. هذا القائد الجليل البالغ من العمر سبعين سنة، كان فارساً نبيلاً ومقداماً، وشبيهاً بريتشارد في كلّ شيء. وبالرغم من تحوّل شعره الأشقر ولحيته الحمراء إلىٰ اللون الرمادي، كانت لا تزال تشعّ في عينيه شجاعة المقاتل. كان عريض المنكبين فارع القامة ذا طلعة مهيبة بقيت نموذجاً للأجيال. ومثل ريتشارد، التزم فريدريك بالصليب حالما وردت إليه الأخبار المؤسفة من الديار المقدَّسة، فبادر بمزيد من العجلة والفعالية والعزم وبانتباه أقل للنزاعات الملكية، إلىٰ استنفار جيشه الصليبي من أقاصي إمبراطوريته الكاثوليكية المقدَّسة وانطلق على طريق الصليبيين البرّية التقليدية، عبر المجر

ورومانيا وصولاً إلىٰ بيزنطية. وفي شهر تشرين الأول/أكتوبر سنة 1189م كان يقف قبالة القسطنطينية.

وكما يليق بفارس شريف، شعر بربروسا بأنّه ملزم بكتابة رسالة إلىٰ خصمه الكبير صلاح الدِّين يحذّر فيها القائد المسلم من الاجتياح المقبل: «بعدما انتهكتَ حرمة الديار المقدَّسة، التي يعود إلينا أمر حكمها، بإذن من الملك الأبدي، سنتصرّف بالصرامة اللازمة تجاه هذه الجرأة الوقحة والجانية... أعد الأرض التي استوليتَ عليها!» وتابع: «نعطيكم مهلة مدّتها اثنا عشر شهراً تكون بعدها الحرب مصيركم... ستشهدون بمشيئة الله قوّة النسور الظافرة وتواجهون غضب ألمانيا، وشباب الدانوب الذي لا يعرف الهرب، والباڤاريين الأشدّاء، وأهل سوابيا المحنّكين، والبرغنديين المندفعين، وسكّان جبال الألب الرشيقين... ستتعلّمون كيف أنّ يدنا اليمنى، التي تحسبونها ضعفت مع السنين، لا تزال تبرع في استخدام السيف كما في ذلك اليوم المجيد والسعيد الذي شهد نقطة تحوّل في انتصار قضية المسيح».

بخلاف الصليبيين الأوائل، نجا الجيش الألماني الجبار من مكائد البيزنطيين البارعة، وسهام الأتراك السلاجقة، ووعورة جبال الأناضول. فاجتاز هضبة آسيا الصغرى بنجاح، لا سيما بفضل انتظامه وقوّة قيادته، وحلّ مؤقّتاً في أرمينيا في ربيع سنة 1190م. كان صلاح الدِّين يستلم التقارير المتواصلة حول تقدّم هذا الجيش من إمبراطور القسطنطينية وقدّر حجم الخطر الداهم. تجاه هذه القوّة الهائلة، حسنة القيادة، والمنتظمة والمندفعة، أطلق السلطان نداءه إلىٰ الجهاد، أَو الحرب المقدَّسة، في أنحاء الإمبراطورية الإسلامية، إلىٰ أمراء سنجار، وجزيرة ابن عمر، والموصل، لا بل وصل نداؤه إلىٰ خليفة بغداد. وصدرت الأوامر بحرق حقول القمح والمخازن أمام المجتاحين، وأُخليت القلاع على الحدود مع بيزنطية، وفُكّكت الحصون في صيدا، ويافا، وقيسارية.

لكن بالرغم من هذا الذعر وجد صلاح الدِّين الوقت للرد على رسالة بربروسا الاستفزازية متظاهراً بالشجاعة على نحو خاص به.

كتب إليه يقول: «إذا أحصيتَ المسيحيين، تجد أنّ المسلمين يفوقونهم عدداً بأضعاف كثيرة. وإن كان البحر يفصل بيننا وبين المسيحيين، فلا بحر يفصل بين العرب الذين لا يُحون. بيننا وبين الذين سيساعدوننا لا يوجد أيّ حاجز مانع. معنا البدو، والتركمان، والفلاحون أيضاً، الذين سيقاتلون بضراوة أمماً آتية لاجتياح البلاد ونهب ثرواتها والقضاء عليهم. سنواجهكم ومعنا بأس الله، وعندما يمنّ علينا الله بإذنه بالنصر عليكم، لن يبقى سوى أن نستولي بحرّية على أراضيكم، بقدرته وبرضاه تعالى».

في 10 حزيران/ يونيو 1190م، وتحت رحمة القيظ في السهل الأغبر، بدأ الصليبيون الألمان يخوضون نهراً صغيراً في كيليكيا اسمه كاليكادوس، ويقال له أيضاً نهر الحديد، من أجل تقدّمهم الأخير نحو بلاد الشام. كان الإمبراطور يختنق من شدّة الحر في بدلته الحديدية الواقية ويصدر الأوامر صارخاً في النهر الضحل بين فرقه من خيول التحميل عندما أُجفلت فجأةً تلك الدواب الكبيرة واهتاج جواده ورمى بالإمبراطور إِلىٰ الماء. ومع أنّ النهر لم يكن يصل إِلىٰ وركه، شدّة ثقل الدرع إِلىٰ أسفل، وعند وصول المياه الباردة التي تدفّقت عبر شقوق الصفائح المعدنية إِلىٰ بشرته الحامية، أصيب بنوية قلبية وغرق. وقد ورد في مرثاة حزينة حول موته: «كوكب الراين انقضّ ماضياً نحو الموت والخراب. النجمة هوت، ومع سقوط النجمة دخلت البلاد في الظلام».

أمّا ما جرى بعد موت الإمبراطور فكان بالفعل رهيباً، فقد عمّت الفوضى صفوف جيشه وشرذمتها تقريباً على الفور. فاغتنم الأتراك الفرصة وهاجموها من كلّ صوب، فتفّرق الجنود الألمان من دون قائد في الأرياف. من المئة ألف رجل تقريباً الذين اجتازوا الممتلكات البيزنطية، وصل خمسة آلاف منهكي القوى إِلىٰ عكّا بعد أسابيع.

إذاً، من حسن الحظ أنّه في ذلك اليوم البائس من تموز/ يوليو، وجد ريتشارد في أحد الأديرة ملاذاً من أحجار الفلاحين. فحملته الصليبية كانت هشّة وفي خطر، ومعرّضة للهلاك إن خسرت قائدها. وكما لاحظ مؤرّخ صلاح الدِّين بشأن موت فريدريك بربروسا: «لو أنّ الله لم يشمل بلطفه وكرمه المسلمين بتقدير الموت على ملك الألمان في الوقت الذي كان يستعدّ فيه لقهر الشام، لكان الناس يقولون اليوم: كانت بلاد الشام ومصر في ما مضى من بلاد الإِسلام».

أمّا ريتشارد فوصلته أخبار أفضل. فالأسطول الإنكليزي اقترب أخيراً من صقلية، ما أفرح قلب الملك الإنكليزي المشتاق للقاء رجاله. وفي مروره السريع خلال ثلاثين دقيقة في مضيق مسينا، لم يغب عن باله ما ترمز إليه تلك المياه، فأمامه كان يربض رأس فارو وصخرة سكيلا، الثنائي الذي كان يرعب البحارة القدامى، حيث كان يقال إنّ الصخرتين تمثِّلان الطمع والتكبّر. وكان بإمكانه أن يماثل نفسه مع أوديسيوس، المندفع مذعوباً هارباً من الدوّامات التي قذفها كاريبديس أَو من الوحش سداسي الرؤوس الذي حاول ابتلاعه هو ورجاله. إن كانت الوحوش لم تلتهم حملة ريتشارد، فقد كان هناك الشبح المعروف باسم مورغان لو فاي من أسطورة آرثر الحديثة. هذا الطيف يكمن أيضاً للمبحرين في ذلك المضيق. ومورغان هي الجنية الساحرة التي تعلّمت السحر من مرلين وبمقدورها إمّا أن تداوي المسافر المتألّم أَو أن تنتقم وتدمّر بسبب حبّ لم يقابَل بمثله.

لا شكّ في أن ريتشارد تساءل عمّا سيكون قدره بينما هو يمرّ بصقلية؟ ولو كان ممّن يستسلمون للهواجس لتساءل أيضاً إن كان هدفه الكبير في استعادة الديار المقدَّسة سراباً هو الآخر.